الخاتمة

هكذا وصلت إلى نقطة نهاية هذا البحث المتواضع ، الذي سعيت من خلاله إلى تسليط الضوء على شكل من أشكال التراث الشفوي الشعبي الأمازيغي الجزائري (الأغنية الشعبية)، الذي يسير بخطى متسارعة نحو الاندثار ، بسبب موت الكثير من أصحاب الذاكرة المنسية ، الذين عاشوا وشهدوا على تاريخ أمة عريقة ، ولكن لم يجدوا من يسجل عنهم أو يدون كنوزهم المعرفية الثمينة التي وارت الثرى .

وأرى أن أول خطوة مستعجلة ، لابد أن تتخذ لحماية ما تبقى من هذا التراث، هو أولا : حصر مناطق البحث حسب الأولوية والأهمية ، ثانيا : تشكيل فرق بحث وطنية تكون مقسمة إلى قسمين؛ قسم يقوم بعملية الجمع والتدوين والتصنيف ، وقسم آخر يقوم بالتحليل والدراسة.

أما على مستوى البحث الذي قدمته ، فقد توصلت إلى جملة من النتائج أهمها:

أ- سمحت لي الدراسة الميدانية من جمع وتدوين للنصوص الغنائية ، من الوصول إلى أن الوادي الأبيض تنتشر فيه نفس الأغاني ، مع اختلاف طفيف يتعلق بأسماء الأماكن وأسماء الأعلام أو بعض الأفعال فقط . أما بنية النص فهي ثابتة ، كما قد يجمع المغني أحيانا بين نصين مختلفين أو أكثر ، وهذا بحكم الرواية الشفوية التي قد تعرض النص للتحريف ، بسبب النسيان خاصة إذا كان المغني (ة) كبير السن .

ب- أن المغنيات اللواتي يحفظن الأغاني ، غالبا ما لا يتقن اللغة العربية الدارجة، ولهذا يحرفن بعض الكلمات ، لصعوبتها على مستوى النطق ، ولهذا كنت دائما أبذل قصارى جهدي لتصحيحها والتأكد منها .

ج- أما على مستوى المضامين ؛ فنجد تنوعا رغم قلة النماذج التي عثرت عليها في أغاني الأطفال والحصاد ، إلا أن للأمر تفسير -حسب رأيي- مرده إلى فترة الاحتلال الفرنسي ، التي قضت على الكثير من ثقافة الشعب الجزائري ، حيث أكد لنا أغلب المغنين أن أكثر الأنواع الغنائية ذات المضامين الاجتماعية (أفراح، ختان، عمل...) يعود إلى ما قبل الاحتلال الفرنسي بكثير ، وهذا يعني أن الناس اضطروا إلى الانصراف عن ترديد هذا النوع بسبب الحرب ، خاصة خلال الثورة التحريرية ، التي فرضت عليهم توجها جديدا ، ترجمته تلك النصوص الغنائية التي رصدت حركة الثورة التحريرية ، ونقلت بصدق معاناة الشعب الجزائري بكل شرائحه من همجية الاستعمار الفرنسي .

وهذا ما يفسر سبب ضياع الكثير من الأغاني في تلك الفترة ، إضافة إلى موت الرواة وقلة ترديدها ، أو التوقف نهائيا عن غنائها ، ماعدا ما وصل إلينا -فيما بعد- عن طريق الحفظة الذين أحيوها بعد الاستقلال ، ورغم ذلك ظلت الأغاني الثورية، الأكثر حضورا وترديدا في كل المناسبات .

د- ترديد الأغاني الثورية في الوادي الأبيض بمناسبة أو من دونها ، رغم زوال الغاية التي ألفت من أجلها أول مرة ، وهذا يعني أن المؤدين يعانون من انعدام الإنتاج الغنائي الجديد ، الذي يعوض النوع القديم ، أو أن

النصوص الحديثة رغم قلتها لا تضاهي النصوص القديمة ، من حيث القيمة واللحن ، ولذالك احتفظ المؤدون بالنوع الأول .

هـ- يرجع الفضل الأول في حماية التراث الغنائي الشعبي بالوادي الأبيض ، إلى المرأة الشاوية ؛ فهي كثيرة الترنم به بمناسبة أو بدونها . والاحتمال الأرجح أن تكون هي مؤلفة أغلب هذه النصوص وملحنتها، وهذا ما يمكن أن نشعر به من طبيعة المضامين التي تعالجها الأغاني .

و-أما عن وظائف الأغنية الشعبية ؛ فتوصلنا عن طريق الوظيفة الطقوسية إلى عراقة مجتمع الوادي الأبيض ، أما الوظيفتين الاجتماعية والنفسية ، فتعكسان براعة النص الغنائي في وصف ونقل اهتمامات الناس وآلامهم ، وقد نعثر على الوظائف الثلاثة في النص الواحد .

ز- اعتماد الأغنية الشعبية أساليب الحوار والتصوير والتشخيص ، وهذا ما يحولها إلى صورة مرئية ، يتخيلها المستمع بكل حيثياتها ، وهذا يعكس براعة المؤلف الشعبي في اختيار كلماته ، وشحنها بطاقة شعورية قادرة على التأثير على المستمع .

ح- تمسك المؤدين بالأداء الجماعي ، وتفضيله على الأداء الفردي ، اعتقادا منهم أن هذا النوع الأخير عيب في حق الجماعة ، وهذا يعكس وحدتهم وتماسكهم . أما الآلات الموسيقية المعروفة بالوادي الأبيض ، والتي ترافق أغانيهم ، فهي البندير والقصبة خاصة .

وأخيرا أتمنى أن أكون قد وفقت في إتمام هذا البحث إتماما مقبولا ومرضيا ، وأن يجد فيه الباحث في الأدب الشعبي ضالته .